

اصلاح تركيا

تاريخه وماهيته وتأثيره

وروح ابطاله

الالسنه تلميح بالدستور الجديد والافكار حائمة حوله واهوية المجالس العمومية والخصوصية تنموح باللغظ فيه فلا يليق بمجلة الجامعة ان تقع بين ايدي قرائها وهي خالية من الابحاث اللازمة بهذا الموضوع وأهمها تاريخ الاصلاح في تركيا وماهيته والمراد منه سابقاً وحاضراً وتأثيره والله المستعان

نبذة أولى

فذلكة تاريخية في القرن الماضي من حكم محمود

حتى بدء حكم السلطان

عبد العزيز

هل هلال القرن الماضي على الدولة والملك في قبضة السلطان سليم الثالث المصلح فانه تولى السلطنة ١٨ عاماً بدأها بمتابعة الحرب التي كان السلطان عبد الحميد الاول قد اوقد نارها مع الدولتين الروسية والنمساوية وختمها باعلان الاصلاح العسكري العثماني الذي دعاه المؤرخون بالنظام الجديد وأدعى الى استياء اجواق الانكشارية منه وخلعه في شهر مايو (ايار) عام ١٨٠٧ . وقد قام بين هذين التاريخين باعمال جليلة بالرغم من المصاعب والقلقل التي احقت بالبلاد في عهده كشورة محمد علي باشا والي يانينا وطوابع ثورة اليونان . وخلفه السلطان مصطفى ولكنه لم يتربع في سرير السلطنة غير اشهر قليلة فخلفه السلطان محمود الثاني الذي نظم الجيش وفكك اجواق الانكشارية وكان اول سلطان نادى بالتنظيم والعدل والمساواة بين جميع الرعايا العثمانيين على اختلاف

ملهم ونخلهم . وفي ٢٨ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٠٨ دعا مصطفى باشا
البرقدار وزيره وأمره ان يدعو الكبراء والاعيان لمفاوضتهم في شؤون الاصلاحات
التي قرر ادخالها الى السلطنة . فيري القاري مما تقدم ان تاريخ الاصلاح في
تركيا يبتدىء منذ قرن كامل . وبعد السلطان محمود الثاني بقي الاصلاح كامناً في
صدر الامة حتى عهد عبد المجيد فقاومه روسيا ثم ظهر لعهد السلاطين الثلاثة عبد
العزیز ومراد و جلالة عبد الحميد اذ قام بعض الغيورين مثل مدحت باشا وبثوا
ما في صدر الامة من امنية الاصلاح

وفي ١٦ يونيو (حزيران) سنة ١٨٢٦ اصدر السلطان محمود الخط المايوي
القاضي بتنظيم الجيش كما تنظم الجيوش الاوروبية . الا انه لم يكن أسعد حالاً
واكبر نصيباً من سلفه السلطان سليم الثالث فقد أصلى حريين مع الدولة الروسية
فشلت الدولة فيهما . الاولى في عام ١٨١٠ وقد انتهت في شهر مايو (ايار)
سنة ١٨١٢ والثانية سنة ١٨٢٨ وقد انتهت في سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٢٩
واضطر السلطان محمود في خلال هذه السنوات ان يقاتل الصريين واليونانيين
وجنود محمد علي باشا والي مصر فعجل ذلك بموته فتوفي بعد واقعة نزيب
التي انكسرت فيها قوات حافظ باشا . وخلفه نجله الاكبر السلطان عبد المجيد
وهو في السابعة عشرة من عمره . وكانت المسألة المصرية أعظم شاغل للدول
فاصدر فرمان سنة ١٨٤٣ الذي كان ختام ادوارها

ولما فرغ من مشاغله الداخلية التفت الى ما كان قد بدأه ابوه من قبله
فأيده وأعلن سنة ١٨٣٩ فرمان الاصلاح المعروف بفرمان ,, كل خانة ,, ثم
ناط بمصطفى رشيد باشا المصلح العثماني المشهور بتحقيق ذاك الاصلاح الذي ساء
الحكومة الروسية فاقترحت على انكلترا منذ عام ١٨٨٤ اقتسام تركيا وكانت
الدولة الانكليزية تتصام عن ذلك . فكانت روسيا تزدد استياءً بقدر ازدياد
الاصلاح انتشاراً في بلاد الدولة وظلت تدس الدسائس الى ان اصلت نار الحرب
بينها وبين الدولة العلية سنة ١٨٥٤ ولم تكن تعتقد ان انكلترا وفرنسا تنتصران

للدولة عليها

ولما انتهت تلك الحرب بفشلها اعلن السلطان عبد المجيد الخط الهمايوني الثاني في ١٨ فبراير (شباط) من عام ١٨٥٦ قبيل مؤتمر باريس ساوى فيه بين جميع الرعايا العثمانيين وصرح بقبولهم جميعاً في الجنسية العثمانية بلا اختلاف ولا تفریق غير ان بعض رجال حزب التأخر حالوا دون انفاذ هذا الخط الهمايوني . وقد توفي سنة ١٨٦١ خلفه اخوه السلطان عبد العزيز

٢ — عبد العزيز ومراد

بدأ عبد العزيز حكمه بقمع ثورة الجبل الاسود والصرب وكانت مدة حكمه ١٥ سنة قضاها منغمساً في شهواته وملذاته وكان مغروراً ومتعظماً ومحباً لنفسه ومسرماً ولم يهتم قط بمصلحة الامة والدولة فكان سلوكه سلوك حاكم في عصر الجهالة ولكن المدنية الاوروبية لا تمهله حتى يأذن لها بالدخول الى بلاده في حين انها كانت تندفق على الشرق فاستطردت الى تركيا في طريقها . وبينما كان السلطان مضجعا في سرير ترفه كان نبهاء الشعب متيقظين وقد ساعدهم تراخيه على التمرس على حب الحرية والتمدن الجديد ولا سيما لانهم كانوا يدرسون الآداب الغربية وكان لهم المجال رحباً لان حرية المطبوعات والجرائد لم تكن مخنوقة . فانشئت لذلك العهد جريدتا " مخبر " و " حریت " . وكاننا تبشان روح الاصلاح في الامة ونشأ الشاعر النابغة كامل افندي فاثار الوطنية في الصدور بمنظوماته الحماسية ولا سيما لانه كان يقرع بالحكومة . وعند ذلك استيقظ السلطان عبد العزيز من غفلته مذعوراً وبذل ان يتدارك المملكة بالاصلاح اعتمد على وزيره محمد نديم باشا وشاركها بالرأي اغنايف سفير روسيا فاتفقوا على اعلان افلاس تركيا بدل ان يتفقوا على اصلاح ماليتها وتقويم حال البلاد كلها . وكان ذلك علة عدا الاوروبيين الشديد لتركيا لان الذين

لهم اموال لا يقبلون مزاحاً بالمسائل المالية . وعليه انتهرت روسيا في خلال هذه
الازمة فرصة تغيظ الصليب الاوروبي من الهلال التركي واثارت الحرب الروسية
التركية سنة ١٨٧٦ التي كانت وبلاً على تركيا

وزد على ذلك ان مسألة الخلافة انشأت عقدة سياسية اخرى افضت الى
خلاف انكلترا وروسيا فان هذه رغبت ان تكون الخلافة للبرنس عز الدين
ابن السلطان عبد العزيز لانها كانت تعتقد انه يميل لها وانكلترا كانت تؤيد
الامير مراد لانه صاحب الحق والامة تحبه لتعقله وحسن آدابه ومعرفته

وكان مدحت باشا ابو الاحرار من أعظم انصار مراد فلما ساءت كل حال
في المملكة استمال اليه محمود نديم باشا الصدر الاعظم . واستوثق منه ان
لا يحرك ساكناً ضده ولا يقضي اوطار روسيا . وعند ذلك أثار السفطاء أي
العلماء وقراء القرآن والمشائخ وعددهم يبلغ نحو ٤٠ ألفاً فاضطر السلطان ان
يرضيه بعزل نديم باشا الصدر الاعظم وعزل شيخ الاسلام وتعيين مدحت باشا
وزيراً . واستوز محمد رشدي باشا صدر أعظم

ولما ثار اهل الفلاخ والبغدان ولّي حسين عوي باشا قيادة الجيش فقمع
الثورة . ولما تعرف مدحت باشا بعوني باشا هذا واطلع على مبادئه وجده خير
نصير له على الاصلاح فاتفقا على تنظيم لائحة اصلاحية تقضي : ١ — بمساواة
العثمانيين بقطع النظر عن ملابهم ٢ — بانشاء مجلس المبعوثان للسيطرة على مالية
البلاد واصلاحها ٣ — بمحاكمة الوزراء في محكمة خاصة اذا اذنبوا أي جعلهم
مسؤولين خلافاً لما كانوا عليه ٤ — باطلاق حرية المطبوعات . لان عبد العزيز
لما شعر بهياج الشعب ادرك ان حرية المطبوعات كانت السبب فختفها

ولما قرّروا هذه اللائحة اتفق مدحت باشا مع السفطاء ان يقوموا بثورة
عامة ويخلعوا السلطان اذا ابى اجابة هذه المطالب ويولوا مراداً مكانه . وكان

عوني باشا في الوقت نفسه قد أعدت القوة العسكرية لانفاذ مشروع الخلع وشيخ الاسلام الجديد خير الله افندي اصدر فتوى بالخلع مدارها اخلال السلطان بواجباته وفي ليلة ٢٠ ايار (مايو) سنة ١٨٧٦ قاد عوني باشا الجنود الى القصر السلطاني وأمرهم بالاحاطة به وهم لا يعلمون ماذا يكون . ثم ذهب عوني باشا الى قصر الامير مراد وواقظه وابلقه انه سيخلف عمه فذعر الامير ظاناً ان ذلك مكيدة له ولكن عوني باشا طمأنه

وكان رديف باشا مستشار الحربية قد عهد اليه ان يدخل على السلطان عبد العزيز ويبلغه الفتوى وبغية الامة بخلعه فدخل القصر بالرغم من مقاومة الحراس . وقد أحس السلطان عبد العزيز بضوضاء في قصره فنفض مذعوراً واذا برديف باشا واقف فوق رأسه فصرخ به ان يخرج من غرفته . فقال له رديف باشا : قم وانظر جنودك المحيطين بقصرك يريدون ان ينفذوا بغية الامة بخلعك . فاسقط عبد العزيز بيده وادرك الدسيسة وجعل يتغضب على مراد وعند ذلك كان عوني قد وصل مع الامير مراد الى دار السر العسكرية حيث كان جميع اعضاء الديوان ينتظرونهما وكان جمهور من الاحرار من كبار الدولة والعلماء وغيرهم فنادوا بالامير مراد خليفة . وفي اليوم العالي قرأ السلطان الجديد منشوره واعداً فيه بالاصلاح وهو منشور لم يسبق له مثيل لما فيه من روح الديموقراطية . اما عبد العزيز فيئس من أمره واتجر بنفسه بعدئذ . وأهم ما يذكر من أعماله في عهده انشاء البنك العثماني عام ١٨٦٢ ومعاودة لندن عام ١٨٧١ التي كانت ضربة جائرة على الدولة . وبلغ دين الدولة لعهدده نحو ٢٠٠ مليون ليرة عثمانية

وكان مراد طيب القلب حسن النية ميالاً الى المدنية الجديدة . ولكنه على ما يظهر كان ضعيف القلب والارادة فكان الصولجان ثقيلاً بيده فلم

يطبق حملة اكثر من ثلاثة أشهر فخلع بفتوى انه مجنون وتولى جلالة السلطان عبد الحميد الحالي بدله في آخر آب سنة ١٨٧٦ وكان مدحت باشا نفسه نصيراً له لانه رأى ان السلطان مراد لا يقوى على القيام باعباء الحكم ولا سيما لانه عصي المزاج جداً وقد أثرت عليه الحوادث ولا سيما انتحار عبد العزيز فمرض وكان مضطرباً كل الوقت . وقد أمّلت مدحت باشا ان جلالة السلطان عبد الحميد ينفذ الاصلاحات المطلوبة

٣ - مدحت ومجلس المبعوثان

وقبل ان يتبوأ جلالة السلطان عبد الحميد العرش كان قد وعد مدحت باشا أن ينفذ الاصلاح . وقد وقّع على القانون الاساسي الذي كان مهيمًا على نية ان يعلنه على أثر مبايعته . وبعد ستة اسابيع اعلن رسمياً بان جلالته سينشر لائحة الاصلاح الجديدة التي كان الشعب يتوقعها لان روح الاصلاح كانت قد عمّت الامة في ذلك الحين

ولكنه ما لبث ان ابغى مدحت باشا ان الاصلاحات التي قدمها اليه بطريقة غير رسمية لا توافق احوال المملكة وان لا بد من تنقيحها ففهم مدحت باشا ان جلالته يبتغي التملص من القانون الاساسي . ولكنه بقي مؤملاً ان ينفذ تلك الاصلاحات عن يد مجلس المبعوثان الذي لم ير جلالته بدءاً من دعوته

وعلى أثر ذلك تمين مدحت باشا صدرًا أعظم فأعلن القانون الاساسي باحتفال عظيم في كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٧٧ وتلا حينئذ جلالة السلطان منشوره الاصلاحى مبيناً الداعي لانشاء مجلس المبعوثان (الذي سيكون موضوعنا في النبعة الثانية)

على ان جلالة السلطان لم يكن راضياً بالقانون الاساسي ومجلس المبعوثان

قلبيًا وانما تظاهر بذلك لكي يسترضي حزب الاصلاح ريثما نجد الوسائل الكافلة باستعادة الحكم المطلق ومن ثم رأسه ان يقطع الحية من رأسها وذلك بان يبعد مدحت باشا لانه هو محور حركة الاصلاح فعزله من الصدارة العظمى ونفاه الى اوروبا . وهناك كتب في مجلة القرن التاسع عشر بعض مقالات مهمة عن تركيا

وما لبث ان استدعاه جلالة السلطان لانه حسب حساباً له وهو في اوروبا وولاءه ولاية كريت في تشرين الاول (اكتوبر) وبعد شهرين ولاءه على ولاية سوريا وهناك اتهم انه سيمضى ويستقل بالولاية فأرسل والياً الى ازمير . ثم استدعي الى المحاكمة في الاستانة بتهمة انه قاتل عبد العزيز . ولكنه علم بالدسيسة فلجأ الى قنصلية فرنسا فوردت رسالة من الاستانة مؤمنة على حياته فسألم نفسه واخذ الى الاستانة وحوكم وشهد عليه زوراً انه قاتل وحكم عليه بالاعدام ولكن مجلس الوزراء ابي ان يصادق على الحكم وسفراً الدول اعترضوا عليه فابدل النفي بحكم الاعدام ونفي مدحت باشا الى قلعة الطائف وبقي في منفاه ٣ سنوات ثم قتل ويقال ان راسه ارسل الى الاستانة اما مجلس المبعوثان فانعقد وكان يتباحث بأهم المسائل في ذلك الحين وكان في بحر انعقاده حرب هائلة للدولة مع روسيا . وقد حدث خلاف شديد بين اعضائه ورجال الحكومة لان الاعضاء كانوا يتباحثون بكل حرية وبحسب ما يخولهم القانون فعز ذلك على كبراء الحكومة الذين كاد المجلس يكف يدهم عن الاستبداد حتى لما اشتد الخلاف أمر السلطان بمجل المجلس وبقي ملغى حتى تموز الماضي كما علم القراء الكرام

وفي الجزء التالي تفصيل الحكم لعهد جلالة السلطان عبد الحميد الثاني الحالي

نقولا الحداد